الجلاء في بيان حقيقة الابتلاء

تأليف الدكتور
محمود أحمد سعيد الأطرش
دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن الكريم





بسم الله الرحمن الرحيم

الجلاء في بيان
حقيقة الابتلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



رقم الايداع ١٥٠٦٠ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977-331-149-x

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة :

الابتلاء مدرسة إيمانية عظيمة ، يتربى فيها المرء على تحمل الصعاب والمشاق ، وفى الابتلاء تمحيص للفرد والمجتمع ، إذ لا يعرف المرء حقيقة نفسه وغيره إلا بعد ابتلائه ، فالمؤمن لا يزيده الابتلاء إلا صلابة وقوة وصلة بالله تبارك وتعالى ، بينما يُظهر المنافق على حقيقته ، وتظهر أموره وما كان يخفيه وقت الرخاء .

ولذلك ابتلى الله عباده جميعاً بألوان الابتلاءات ، ابتلاهم بالشدة ليعتادوا الصبر ويقوى إيمانهم ويزداد أجرهم ، وابتلاهم بالخير فأفاضه عليهم ليشكروه على نِعَمه ويستخدموا ذلك فى القرب منه سبحانه وليزداد أجرهم .

فالمؤمن أمره كله له خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن .

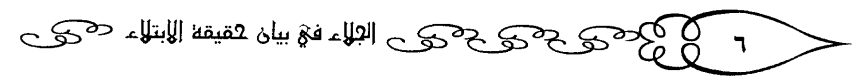
والابتلاء بالخير أشد وأصعب من الابتلاء بالشر .

وفى هذا البحث بيان لكيفية ابتلاء المؤمن ، بالخير أو الشر ، فالله سبحانه يبتلي عباده المؤمنين بما يعود عليهم بالخير فى دينهم ودنياهم .

كتبه

محمود أحمد الأطرش

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



الفصل الأول

حقيقة الابتلاء وبيان الحكمة منه

المبحث الأول

تعريف الابتلاء

ومعنى الابتلاء فى أصل اللغة هو الاختبار ، ويستعمل أصل البلاء فى الفناء والعطب والتلف ونحوه ، فيقال : بلى الثوب إذا تلف ، ثم صار يستعمل الابتلاء فى الاختبار كأنه أتلفه من كثرة الاختبار له ، قال الراغب [(١)] فى معنى الابتلاء والبلاء : « بلي » الثوب بِلى وبلاءً أي خَلق ، ومنه لِمَنْ قيل سافر : بلاه سفرٌ ، أي أبلاه السفر ، وبلوته أي اختبرته كأني أخْلقْتُه من كثرة اختباري له ، وقُرِئَ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : ٣٠] [(٢)] ، أى نعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك قيل : أبليت فلاناً إذا اختبرته ، وسمي الغمّ بلاءً من حيث أنه يُبلي الجسم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات : ١٠٦] .

وسُمِّيَ التكليف بلاءً من أوجه :

أحدها : بأن التكاليف كلها مشاقّ على الأبدان فصارت من هذه الوجه بلاءً .

---

(١) الراغب : هو الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى ، إمام من حكماء العلماء ، اشتهر بالتفسير واللغة ، عاش ببغداد ، وتوفى عام ٥٠٢هـ « معجم المفسرين ١٥٨/١ » .

(٢) وقد قرأ الجمهور « تبلو » وقرأ حمزة وعلي « تتلو » وروى عن عاصم « نبلو » انظر تفسير النسفى (٥٣٨/١) وتفسير البحر المحيط (١٥٤/٥) .

والثانى : أنها اختبارات ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ ولَنبلُونَكُمْ حتَىٰ نعلَم المُجاهدينَ منكُمْ والصَّابرين ﴾ [محمد : ٣١] .

والثالث: أنها اختبار الله تعالى للعباد ، تارة بالمسارّ ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءً ، فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية للشكر ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحة أعظم البلاءين .

وإذا قيل : ابتلى **فلان** كذا وأبلاه ، **فذلك يتضمن أمرين** :

أحدهما : تعرُّف حاله والوقوف على ما يُجهل من أمره .

والثانى : ظهور جَوْدَته ورداءته . وربما قُصد به الأمران وربما يقصد به أحدهما ، فإذا قيل فى الله تعالى : بلا كذا ، أو أبلاه ، فليس المرادُ منه إلا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يُجهل من أمره ، إذ كان الله علام الغُيوب ، وعلى هذا قوله عز وجل : ﴿ وإذ ابْتَلَىٰ إبْراهيم ربُّهُ بكَلمَات فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

ويقال : أبليت فلاناً يميناً إذا عرضْتَ عليه اليمين لتبلوه بها [١] .

فأصل معنى « بلي » التلف ، ثم صار يستعمل فى الاختبار ، كأنه من كثرة الاختبار يتلف ، أو أن الاختبار يؤدي إلى التلف ، ومعنى ابتلاء الله اختباره ، واختباره لا لمعرفة شأنه ، بل لِتتبيّن حالتهُ من جودة أو رداءة يعرف بها نفسه .

---

(١) المفردات للراغب الأصفهانى (ص ٦١) .

المبحث الثاني
الابتلاء بالشر والخير

والابتلاء قد يكون بالشر وقد يكون بالخير ، والابتلاء بالخير أشد وطأة من الابتلاء بالشر ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

ومعنى الابتلاء بالشر : هو الابتلاء بالمكروه ، وهو ما يسبب ألماً للنفس المعتادة كفقد الأهل ، والمرض ، والفقر ، ونحو ذلك ، وتسمية القرآن الكريم له شراً باعتبار عودته للنفس .

ومعنى الابتلاء بالخير : هو الابتلاء بالمحبوب ، أى ما تحبه النفس المعتادة ، كالصحة والمال والولد ، ونحو ذلك ، وكذلك فإن تسميته خيراً باعتبار عودته للنفس ، والإنسان لا يعرف حقيقة الخير والشر إلا بنظر الشرع ، فما اعتبره الشرع خيراً فهو الخير ، وما اعتبره شراً فهو شر ، قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وعليه فقد تكون المصائب التى تصيب الإنسان خيراً له فى حقيقة الأمر ، فإذا أصيب الإنسان المؤمن بمصيبة وصبر عليها ، فليعلم أنها لتكفير ذنوبه ، وليزداد قربه من الله عزّ وجلّ . ولا يعنى هذا أن المصيبة والبلاء أفضل من العافية ! فالعافية أفضل من البلاء ، وذلك أن النبى ﷺ كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة .

قال الإمام الغزالي [١] **في الإحياء** : « لعلك تقول : هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ .

فأقول : لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة » [٢] .

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : مرّ النبي ﷺ برجل وهو يقول : اللهم إني أسألك الصبر ، فقال ﷺ : « **قد سألت البلاء ، فسلِ اللهَ العافيةَ** » [٣] ، وقال النبي ﷺ : « **يا عباس يا عمَ النبي أكثر الدعاء بالعافية** » [٤] .

وأخرج ابن أبي الدنيا [٥] عن مطرّف بن عبد الله [٦] قال : لأن أعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن ابتلى فأصبر [٧] .

---

(١) الغزالي : محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، زين الدين حجة الإسلام ، أبو حامد حكيم متكلم فقيه أصولي صوفي مشارك في أنواع العلوم ، ولد بالطابران بخراسان عام ٤٥٠هـ ، وتوفي فيها عام٥٠٥هـ (معجم المؤلفين٦٧١/٣) .

(٢) إحياء علوم الدين ، الغزالي (١٣٤/٤) ، وقوله أنه ﷺ كان يستعيذ من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده(١٨١/٤) أن النبي ﷺ كان يدعوا « ... وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : « إسناده جيد (الإحياء ١٣٤/٤) .

(٣) رواه أحمد(٢٣١/٥) ، والترمذي في كتاب الدعوات باب(٩٣) وقال : حديث حسن .

(٤) رواه أحمد(٢٠٩/١) وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر رقم(١٥٠) بإسناد حسن .

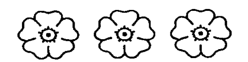
(٥) ابن أبي الدنيا : عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي ، أبو بكر ، محدث حافظ مشارك في أنواع العلوم ، له تصانيف كثيرة في الحديث ، ولد عام٢٠٨هـ ، وتوفي ببغداد عام ٢٨١ هـ (معجم المؤلفين٢٨٦/٢) .

(٦) مطرف بن عبد الله الشخير العامري ، أبو عبد الله ، زاهد من كبار التابعين ، له كلمات في الحكمة مأثورة ، ثقة في ما رواه من الحديث ، ولد في حياة النبي ﷺ ، وأقام بالبصرة وتوفي فيها عام ٨٧هـ – على خلاف في تاريخ وفاته – (الأعلام٢٥٠/٧ وتقريب التهذيب ص٤٦٦) .

(٧) كتاب الشكر لله عز وجل ، لابن أبي الدنيا(رقم ٦٤) .

فالعافية أحب إلى نفس المؤمن من البلاء ، وفي كليهما ابتلاء ، ابتلاء بالمكروه لمعرفة صبره وابتلاء بالمحبوب لمعرفة شكره .

ثم إن القرآن الكريم رسم لنا طريق الخروج مما ابتُلينا به من مكروه ، فمن ابتلي بمرض أو فقر أو غيره فلِحكمةٍ يريدها الله ، ولا يعني ذلك الاستسلام للمكروه ، بل عليه أن يسعى للتخلص منه ، ويكون له بذلك أجرٌ إضافةً لأجر صبره على المصيبة .



المبحث الثالث
حكمة الابتلاء

[١] **قد يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأنواع المصائب والابتلاءات ، ليُعلمهم بقوة صبرهم** ، حتى إذا ثبت صبرهم كانوا أهلاً لتحمل تكاليف هذا الدين ، وتحمل مشاق الجهاد في سبيل الله وإعلاء رايته وتبليغ دعوته ، والدفاع عن هذا الدين دفاعاً يجعلهم أهلاً لحمل هذه الأمانة العظيمة .

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم خير مَثَل فى حمل هذا الدين وتبليغه للناس كافةً والدفاع عنه بكل ما أوتوا من قوة ، فبذلوا بذلك كل غالٍ ونفيس ، بذلوا أرواحهم وكل ما يملكون ، وما كان لهم أن يصبروا على ذلك لولا عناية الله بهم وتربيتهم على تحمل مشاق هذه الدعوة فصبروا وثبتوا وبلغوا ، فجزاهم الله عن هذه الأمة خير الجزاء .

قال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)** ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

« فلابد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أرادوا

في سبيلها من تكاليف ، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى ، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذى تعز به العقيدة فى نفوس أهلها قبل أن تعز فى نفوس الآخرين ، وكلما تألموا فى سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها ، كانت أعز عليهم ، وكانوا أضنّ بها ، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها .

ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ؛ وتفتح فى القلوب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن إلا تحت مطارق الشدائد » (١) .

[٢] وبالابتلاء يتميز الصف المؤمن من غيره ، فيظهر كلّ على حقيقته، قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

ففي غزوة أُحد يشاء الله تعالى أن يتخلف جمع من المنافقين فيرجعون إلى المدينة ، ثم يشاء الله تعالى أن يُهزم المسلمون فى نهاية المعركة ... حتى إذا عاد الرسول ﷺ مع أصحابه ظهرت شماتة المنافقين وظهر تبجحهم إزاء ما أصاب المسلمين ، قال تعالى فى بيان موقف المنافقين : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ**

---

(١) فى ظلال القرآن (١/١٤٥) .

إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران : ١٦٦ – ١٦٨] .

بينما كان الصف المؤمن قوياً صلباً ، فلم تزدهم الشدة إلا صلابة وتمسكاً ، فبعدما عاد الصحابة إلى المدينة وقد أثقلتهم الجراح ، واشتد عليهم ما أصابهم سمع النبي ﷺ أن جيوش المشركين عادت وجمعت نفسها وجهزت قواتها تريد المجيء إلى المدينة لتستأصل شأفة المسلمين جميعاً، فجهز النبى ﷺ جيشاً ممن كان فى غزوة أُحد يريد ملاقاة المشركين مرة أخرى ، ولم يستخرج النبى ﷺ معه إلا من كان فى الغزوة ، وسار الجيش وهم مثقلون بالجراح ، فلما سمع المشركون فرّوا هاربين ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)** ﴾ [آل عمران : ١٧٢ – ١٧٣] .

وفى غزوة الأحزاب تألبت جيوش الكفر من المشركين تريد استئصال المسلمين وكان موقفاً صعباً على المسلمين ، إلا أن إيمانهم بالله تعالى يزيدهم قوة وصلابة ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم بمُلك فارس ، وعندما ظهر المنافقون على حقيقتهم ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣)** ﴾ [الأحزاب : ١٢ – ١٣] .

بينما زاد ذلك الموقف المؤمنين إيماناً واحتساباً وقوة وعزيمة وصبراً ، قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

فالابتلاء يميز المؤمنين عن غيرهم ، والمنافقون ينقلبون وقت الشدة فتظهر حقيقتهم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ .

[النساء : ٧٢ – ٧٣] .

[٣] من ذلك نعلم لماذا ابتلى الله تعالى أنبياءه وأولياءه وعباده الصالحين ، ولماذا خص أولياءه بذلك .

والله تعالى يبتلي العبد حسب إيمانه ، فكلما زادت درجة العبد عند الله تعالى وزاد قربه منه ابتلاه الله بأنواع الإبتلاءات ، يبتليه حباً به ، حتى إذا صبر على ذلك كافأه بأعظم ما تكون المكافأة .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله ، أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : « **الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاءُ بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة** » (١) .

(١) رواه أحمد (١/١٧٢) ، والترمذي (٢٤٠٣) في الزهد باب (٥٧) وقال : حسن صحيح .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها من العمل ابتلاه الله عزّ وجل بالحزن ليكفرها عنه** » [(١)] .

ولو تأملنا حياة الأنبياء جميعاً لوجدنا أنه ما منهم من أحد إلا وابتلاه الله بألوان من الابتلاءات ، بل إنه يضاعف لهم البلاء ، قال ﷺ : « **إنا معاشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبى من الأنبياء يبتلى بالقمل حتى يقتله ، وإن كان النبى من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيُخوِّنُها ، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء** » [(٢)] .

فهذا نبى الله إبراهيم عليه السلام يبتليه الله تعالى ويختبره فى أمر ذبح ولده إسماعيل عليه السلام فيمتثل إبراهيم أمر ربه – هو وابنه إسماعيل – ويجتاز إبراهيم وابنه الامتحان ، فتتداركه عناية الله ويفديه بذبح عظيم ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)** ﴾ .

[الصافات : ١٠٢ – ١٠٧] [(٣)] .

وقوم طالوت ابتلاهم الله بنهرٍ وأمرهم أن لا يشربوا منه إلا أن يغترف

---

(١) رواه أحمد (٦/١٥٧) .

(٢) رواه أحمد (٣/٩٤) .

(٣) وقوله : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾: أى صرعه على جبينه (تفسير النسفي ٢/٤٢٠) .

أحدهم غُرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فمن شرب لم يستطع القتال ، لكن الله منّ على المؤمنين الذين امتثلوا للأمر -رغم قلتهم - بالنصر وآتاهم الملك [(١)] .

[٤] والحياة الدنيا كلها ابتلاء من الله تعالى :

فالله تعالى خلق الموت والحياة ابتلاء للناس ، حيث شاء الله بحكمته تعالى أن يخلق العباد فترة من الزمن فى هذه الحياة الدنيا ليختبرهم أيهم أحسن عملاً ، وأخبرهم بأنهم سيبعثون مرة أخرى ليتم حسابهم على ما قدموه وما فعلوه ، قال تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)** ﴾ [تبارك : ١ - ٢] .

[٥] والله تعالى خلق الإنسان نفسه بشكل يظهر فيه الابتلاء ، فجعل فيه نوازع الخير ونوازع الشر ، وجعل لكل منها قوة وجاذبية ، فجعل فيه غرائز تشده لعمل الشر ، وأكدها بما أعطى الشيطان من قوة على الوسوسة وتزيين الشر له . كما وهب له العقل وأمده بالروح وأرسل له الرسل وبين له طريق الخير من طريق الشر ، وذلك ليبتليه وينظر كيف يعمل ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)** ﴾ [الإنسان : ٣] .

وزيادة فى ابتلاء الله تعالى للإنسان جعل له ما على الأرض زينة ليختبر أمره كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ**

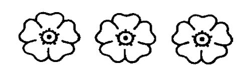
---

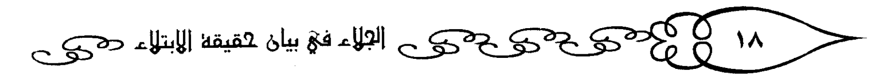
(١) انظر قصة قوم طالوت المشار إليها فى سورة البقرة (٢٤٩ - ٢٥١) .

عَمَلاً ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف : ٧] ، حيث زين له هذه الحياة الدنيا بزخرفها وأموالها ، لكن بيّن له أن الآخرة هى دار القرار .

والله تبارك وتعالى جعل الناس مراتب مختلفة وسخر البعض من العباد للبعض الآخر ، لتقوم الحياة على سطح هذه الأرض وليبتلي العباد كيف يصنعون ، فهل يدعوهم ذلك للإحساس بنعمة الله عليهم وشكر هذه النعمة ، أم يدعوهم ذلك للبطر والظلم ، قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

فالحياة كلها ابتلاء من الله تعالى ، لكن ابتلاء الله لعباده وأوليائه منحة ونعمة يمنّ الله بها على عباده ، والله هو الذى يختار لعبده المؤمن الطريق الذى يقربه منه تبارك وتعالى .





الفصل الثاني

ألـــوان الابــتـــلاء

المبحث الأول

الابتلاء بالغنى والفقر

المال نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى ، به يقيم الإنسان أمور حياته ومعاشه ، فيؤمن المسكن والملبس وغير ذلك من ضرورات الحياة ، أما الفقير فإنه يعيش حياته فى كبدٍ وشقاء ويكون مستغرقاً وقته فى طلب المال ، قال الغزالي فى الإحياء : « أما المال ، فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح ، وكيف لا ، ومن عُدم المال صار يستغرق الأوقات فى طلب الأقوات ، وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ، قال بعض الحكماء – وقد قيل له – : ما النعيم ؟ فقال : الغنى ، فإني رأيتُ الفقير لا عيش له » [١] .

فبالمال يقيم الإنسان أمور حياته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥]، قال أبو السعود [٢] : ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [أي جعلها شيئاً تقومون به وتنتعشون] [٣] .

---

(١) إحياء علوم الدين (١٣٤/٤) .

(٢) أبو السعود محمد بن مصطفى العمادي ، أبو السعود ، مفسر أصولي شاعر من فقهاء الحنفية وعلماء الأتراك ، ولد قرب القسطنطينية عام ٩١٩هـ وتوفى فيها عام ٩٨٢ هـ (معجم المفسرين ٦٢٥/٢) .

(٣) تفسير أبي السعود (١٤٤/٢) .

ولذلك جعل الإسلام المال أحد الضروريات الخمس [١] ، وشرع الكثير من الأحكام للمحافظة على المال ، فشرع الأحكام لكسب المال من طرقه المشروعة ، ولصرفه في الطرق المشروعة ، وبين أن المال حق للجميع وليس لصاحبه الذى اكتسبه .

وقد ابتلى الله تعالى الإنسان بشأن هذا المال فمنهم من أفاض عليه ، ومنهم من منعه عنه حتى يتم ابتلاؤه حسب حكمة الله . وبين جل شأنه بأنه لولا الخشية من أن يفتتن المؤمنون بالمال لجعل إفاضة المال علامة للكافرين ، ولكنه أعطى المؤمنين فى الدنيا رحمة بهم ، قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)** ﴾ .

[الزخرف : ٣٣ - ٣٥] .

قال ابن كثير [٢] : « أى لولا أن يعتقد الناس الجهلةُ أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال » [٣] .

وبهذا ابتلى الله عباده بشأن المال ، فابتلاهم بكثرة المال عسى أن يقوموا بشكرها ، وابتلاهم بقلة المال عسى أن يصبروا ويحتسبوا ذلك عند الله تعالى ،

---

(١) باستقراء أحكام الشريعة وجد أن الإسلام يحافظ على ضرورات الحياة ، وهذه الضرورات هى : الدين والنفس والعرض والمال والعقل ، والإسلام شرع أحكامه لحمايتها ومنع المساس بها حتى تقوم الحياة .

(٢) ابن كثير : إسماعيل بن عمر البصري ثم الدمشقى ، عماد الدين ، مفسر محدث مؤرخ من فقهاء الشافعية ، ولد عام ٧٠١ هـ فى قرية من قرى بصرى الشام ، وتوفى بدمشق عام ٧٧٤هـ (معجم المفسرين (٩٢/١) .

(٣) تفسير ابن كثير (١٢٩/٤) .

قال سبحانه : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (٣٦) ﴾ [سبأ : ٣٦] .

يقول سيد قطب [١] : « قد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سُوءً وإفساداً ، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة ، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة - وفق حكمته وتقديره - بهذا الرصيد الأثيم ! وقد يحرمهم فيزدادون شراً وفسوقاً وجريمة وجزعاً وضيقاً ويأساً من رحمة الله ، وينتهون بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال .

ولقد يغدق الله على أهل الخير ، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ماكانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ، ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم ، وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان وثقتهم بربهم ، ورجاءهم فيه ، واطمئنانهم إلى قدره ، ورضاهم بربهم وحده ، وهو خير وأبقى ، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير » [٢] .

فالله تبارك وتعالى إذا علم من عبده المؤمن أن المال أفضل له فيعطيه كما يشاء سبحانه ليكون ذلك سبباً في زيادة قربه من ربه تبارك وتعالى ، وإذا علم أن قلة المال أفضل لعبده المؤمن فيمنعه منه حتى لا يُفتن به ، وفي كلا الأمرين ابتلاء بالنسبة للمؤمن ، ابتلاء بإفاضة المال وابتلاء بقلته أو عدمه ، والله تعالى

---

(١) سيد قطب : كاتب وعالم بالتفسير ، من كبار المفكرين الإسلاميين والأدباء في مصر في الثُلث الثاني من القرن العشرين ، ولد في عام ١٣٢٤هـ في قرية من قرى أسيوط وتوفي بالقاهرة عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٦م (معجم المفسرين ٢١٩/١) .
(٢) في ظلال القرآن (٢٩١٠/٥) .

هو الذى يختار لعبده حسب علمه به .

فالمال إذاً نعمة عظيمة ، فإذا أعطاها لعبد من عباده الطائعين فإن ذلك رحمة بهم ليستعينوا بها على عبادته سبحانه،ويعرف المؤمن هذا بأن يعرض نفسه على منهج الله تعالى ، فهل يزيده ماله قرباً منه تعالى ؟ فإن كان ذلك فليعلم أنه رحمة به ، وإن كان غير ذلك ، فليعلم أنه استدراج ، والعياذ بالله تعالى .

وقد ورد الكثير من النصوص فى بيان فضل الغنى الشاكر ، فقد روى الإمام أحمد من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** »[١] ، وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال : « **لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار** »[٢] . ويقول النبى ﷺ : « **إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي** »[٣] .

فالمال نعمة عظيمة يفيضه الله تعالى ويخص به بعض عباده المؤمنين ليكون مالهم وسيلة لنيلهم أعظم الدرجات ، وبذلك تظهر نعمة الابتلاء بالمال ، وهذا ابتلاء بالخير حتى يشكروا نعمة ربهم . فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوْا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم ، **فقال** : « **وما ذاك ؟** » ، فقالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : « **أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به مَنْ سبقكم ، وتسبقون به مَنْ بعدكم ، ولا**

---

(١) رواه أحمد (١٩٧/٤) .
(٢) رواه البخارى (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥) والترمذى (١٩٣٦) وابن ماجه (٤٢٠٩) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

يكون أحدُ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، **قال** : « **تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة** » ، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « **ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء** » [(١)] .

إلا أن المال فتنة عظيمة ، وقد تكون أكثر الفتن التى تفتن الناس عن دينهم ، وقد ضل الكثير من العباد بسبب المال ، ولهذا ورد التحذير الشديد من فتنة المال ، قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وقد ورد التحذير من الحياة الدنيا ومغرياتها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر : ٥] .

وقال النبى ﷺ : « **إن لكل أمة فتنةً ، وفتنةُ أمتى المال** » [(٢)] ، وقال ﷺ : « **لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا** » [(٣)] . [(٤)] .

---

(١) رواه البخارى (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥) .
(٢) رواه الترمذى (٢٣٣٧) وقال : حسن صحيح .
(٣) رواه الترمذى (٢٣٢٩) وقال : حسن صحيح .
(٤) الضيعة : البستان والحديقة والمزرعة لأن هذه الأشياء تشغل العبد كثيراً عن ذكر الله وتعرضه كثيراً للغفلة . [المحقق : أبو الحسن بن نمير] .

وعليه ، فإن في المال فتنةً عظيمة وقد تكون بلاءً على الإنسان ، ولهذا كان التحذير منها ، وعلى هذا يكون الفقر نعمة عظيمة لمن يفتتن بالمال . والإنسان لا يعرف ما هو الأفضل بالنسبة له ولهذا ينبغي عليه التسليم لأمر الله ، فإن اختار الله له كثرة المال فهو الأفضل لما يعلم الله منه الشكر ، وإن اختار له الفقر فهو الأفضل لما يعلم منه الصبر ، وهكذا يكون الخير فيما اختاره الله لعباده .

وقد وردت روايات كثيرة في بيان الزهد في الدنيا ، وبيان فضل الفقراء الصابرين ، حيث ورد أن أكثر أهل الجنة من الفقراء ، كما في الحديث : « **يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام** » (١) . وقال ﷺ : « **اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء** » (٢) .

ولذلك كان رسول الله ﷺ وأصحابه من الذين زهدوا في الدنيا وصبروا على فقرهم وجوعهم ، واحتسبوا ذلك عند الله تعالى لما يعلمون من فضيلة ذلك ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض » (٣) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : لقد رأيت نبيكم وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه (٤) . (٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٥٤) وقال : حسن صحيح .
(٢) رواه مسلم (٢٧٣٧) والترمذي (٢٦٠٢) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٧٠) والترمذي (٢٣٥٧) وابن ماجه (٣٣٤٦) .
(٤) رواه مسلم (٢٩٧٨) والدقل : رديء التمر .
(٥) بل كان ﷺ يفتش التمر من الدود ويأكله ﷺ ، أترى هذا لهوانه على الله ؟! ، حاشا لله ، بل هو أحب العباد إلى الله وهو خليل الرحمن ، وهكذا إذا أحب الله عبده صرف الدنيا عنه وصرف قلبه عن الدنيا وأسكن قلبه حبه وحب لقائه ، فاللهم اصرف عنا الدنيا وفتنتها ، واجعلنا ممن يستخدمها ولا يخدمها [المحقق : أبو الحسن بن نمير] .

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخرُّ رجالٌ من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة – وهم أصحاب الصفة – حتى يقول الأعراب : هؤلاء مجانين ! فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم ، فقال : « **لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة** » (١) .

وبهذا يتضح أن فى الابتلاء بالفقر بالنسبة للمؤمن نعمة عظيمة له ، فلعله لو أعطى شيئاً من المال يكون فتنة له ، ولهذا ينبغى على المرء أن يسأل الله ما فيه الخير له ، والله تبارك وتعالى يحمي عبده من الدنيا كما يحتمي المريض مما يضره ، روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا ، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء** » (٢) .

وليس معنى ذلك أن الفقر أفضل ، بل قد يكون فى الفقر بلاء عظيم ، فإن فى الفقر فتنة أيضاً ، ولهذا كان النبى ﷺ يسأل ربه الغنى ، كما يسأله أن يعيذه من بلاء الفقر .

روى مسلم عن ابن مسعود أن النبى ﷺ كان يقول : « **اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى** » (٣) ، ويقول النبى ﷺ : « **لا بأس بالغنى لمن اتقى ، والصحة لمن اتقى خيرٌ من الغنى ، وطيب العيش من النعم** » (٤) .

كما كان النبى ﷺ يعوذ بالله من زوال نعمته ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « **اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحوُّل عافيتك ، وفُجاءة نقمتِك ، وجميع سخطِك** » (٥) .

---

(١) رواه الترمذى (٢٣٦٩) وقال : صحيح ، والخصاصة : الفاقة والجوع الشديد .
(٢) رواه الترمذى (٢٠٣٦) وقال : حسن غريب . (٣) رواه مسلم (٢٧٢١) والترمذى (٣٤٨٤) .
(٤) رواه أحمد (٣٧٢/٥) وابن ماجه (٢١٤١) . (٥) رواه مسلم (٢٧٣٩) .

وكذلك كان النبى ﷺ يتعوذ من الفقر ، فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يدعو بهذه الكلمات : « **اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر** » (١) .

وخلاصة القول فى ذلك :

أن فى كلٍّ من الغنى والفقر نعمةً عظيمة إذا حصل أيهما للمؤمن ، إن رافق الغنى شُكْرٌ ، ورافق الفقر صبر واحتساب ، ولكن الغنى أفضل للمؤمن إذا شكر نعمة ربه عليه ، فإن ابتلاه بالفقر فَليحميَه من الدنيا كى لا تكون له فتنة (٢) .



(١) رواه الترمذى (٢٤٨٩) وقال : حسن صحيح .

(٢) فنقول للفقير : لا تحزن ، فإن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام كما صح فى الحديث الصحيح ، ونقول للغنى : أحسن كما أحسن الله إليك ، ونقول لهما : كلاكما مبتلى وخيركما من أحسن عبادة ربه ، وقام بواجب العبودية ، فالبس لكل حالة لبوسها ، فكن عند النعماء شكوراً ، وعند الضراء صبوراً لتنقلب إلى ربك مسروراً [المحقق : أبو الحسن بن نمير] .

المبحث الثاني
الابتلاء بالصحة والمرض

الصحة والعافية نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى ، لأن فى الصحة والعافية قوة والقوة مطلوبة شرعاً ، والإنسان الضعيف والمجتمع المريض لا يستطيع القيام بأعباء الحياة ، ويكون عرضة للمذلة والمهانة والاستعباد ، ويكون عالة على غيره ، لذلك « وضع الإسلام للأبدان تشريعات خاصة تقيها من العلل وتحفظها من الأمراض ، وذلك لما للصلة المتينة بين الروح والجسد ، ولأن صاحب الجسد العليل لاتتاح له الفرصة للسير فى مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الإنساني كعضو فى الهيئة الاجتماعية .

فالإنسان المريض ضعيف الإرادة واهي الأعضاء ، مضطرب التفكير ، عصبي المزاج لا يستفيد منه المجتمع الإنسانى كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء » [(١)] ، لذلك امتدح الله ورسوله ﷺ القوة ، فقد جاء على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] ، وكما قال تعالى عن طالوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ، وقال النبى ﷺ : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير** » [(٢)] .

ففى المرض عجز عن القيام بأعباء العبادة وأعباء الحياة ، لذلك ينبغى على المرء أن يغتنم فرصة صحته قبل مرضه . يقول الرسول ﷺ : « **اغتنم خمساً**

---

(١) روح الدين الإسلامى ، عفيف الطبارة ، (ص ٤٣٠) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤) وابن ماجه (٧٩) .

قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (١) . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : « **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »** (٢) .

فالصحة نعمة عظيمة ينبغى على المرء الشعور بها واغتنامها قبل المرض ، والابتلاء بها من باب الابتلاء بالخير ، والله تعالى يعطى العبد الصحة كما يعطيه المال حتى يختبر أمره لينظر كيف يعمل بها وكيف يستغلها ، وطبيعة الإنسان أنه إذا لم يكن مريضاً لم يشعر بقيمة الصحة والعافية ، وقيل فى المثل : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ولو تأمل الإنسان بأدنى مرض لو أصيب به فلا يشعر بطعم الحياة ، بل قد يتمنى البعض الموت هرباً من آلام المرض .

فالصحة نعمة عظيمة يعطيها الله تعالى من شاء من عباده ليمتحنهم بما يعطيهم ، يقول الرسول ﷺ : « **إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس »** (٣) ، ويقول الرسول ﷺ : « **إن أول ما يُسأل عنه العبد أن يقال له : ألم أصحَّ جسمَك ، ونروك من الماء البارد »** (٤) .

وعن وهب بن منبّه (٥) قال : رؤوس النعم ثلاثة : **فأولها** : نعمة الإسلام التى لا تتم النعمة إلا بها ، **والثانية** : نعمة العافية ، التى لا تطيب

---

(١) رواه الحاكم (٣٠٦/٤) وصححه ووافقه الذهبى ، ووافقهما الألبانى فى صحيح الجامع .
(٢) رواه البخارى (٦٤١٦) والترمذى (٢٣٣٤) والبيهقى فى الكبرى (٣٦٩/٣) وأحمد (٢٤/٢) .
(٣) رواه أحمد (٢٥٨/١) وهو فى الصحيحين قريب من هذا اللفظ .
(٤) أخرجه الخرائطى فى كتاب فضيلة الشكر رقم(٥٤)ووافقهما الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢) .
(٥) وهب بن منبه الصنعانى الذمارىّ ، أبو عبد الله ، مؤرخ كثير الإخبار عن الكتب القديمة ، عالم بالإسرائيليات ، يعد فى التابعين ، ولد عام (٣٤هـ) بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ، توفى عام (١١٤هـ) (الأعلام ١٢٥/٨) .

الحياة إلا بها ، **والثالثة** : نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها [١] .

ولكن قد تكون الصحة والعافية فتنة عظيمة ، وقد يكون المرض هو الأفضل بالنسبة للمؤمن ، وذلك أن المريض قد يكون أكثر صلة بالله تبارك وتعالى ، ولو يعلم المريض أجر ما يصيبه من مرض لتمنى أن لا يكون قد عُوفى من المرض ، فالمرض أجره عظيم جداً ، وهو تكفير للذنوب والسيئات التى يرتكبها المرء ، ولو قارن الإنسان بين ألم المرض فى الدنيا وألم العذاب فى الآخرة لعرف أن المرض نعمة عظيمة يمن الله بها على عباده وأوليائه ، وقد ابتلى بالمرض أولياءه وأصفياءه وأحبابه ، فهذا أيوب عليه السلام ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وهذا محمد رسول الله ﷺ يشتد به المرض ، فقد روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعك ، فقلت : يارسول الله إنك توعك وعكاً شديداً ، قال : « **أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم** » [٢] .

ففى الابتلاء بالمرض نعم عظيمة ، وأن من أصيب بمرض فقد أراد الله به خيراً ، يقول الرسول ﷺ : « **ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذىً ولا غمّ ، حتى الشوكةُ يُشاكُها إلا كفَّرَ الله بها خطاياه** » [٣] .

ويقول الرسول ﷺ : « **من يرد الله به خيراً يُصب منه** » [٤] .

ويقول الرسول ﷺ : « **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده**

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم (١٦٩) .
(٢) رواه مسلم (٢٥٧١) .
(٣) رواه مسلم (٢٥٧٣) .
(٤) رواه البخارى (٥٦٤٥) وأحمد (٢/٢٣٧) .

وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » [١] .

ففي الابتلاء بالمرض أجر عظيم ، ولهذا كان أشد الناس بلاءً هم الأقرب عند الله تعالى ، قال ﷺ : « **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل** » [٢] .

ولا يعني هذا أن المرض أفضل من الصحة مطلقاً ، ولكن كلّ ما كان من عند الله هو الأفضل بالنسبة للمؤمن ، فإن أعطاه الصحة فهو الأفضل ، وذلك ليغتنم هذه الصحة ولتكون عوناً له على طاعة الله ، وإن ابتلاه بالمرض فهو الأفضل ، وذلك ليكفر به من خطاياه .

وليس على المرء أن يسأل الله المرض ، بل عليه أن يسأله العافية ، قال ﷺ : « **يا عباس ، ياعم النبي ، أكثر الدعاء بالعافية** »[٣] ، وإن كان الابتلاء بالعافية أشد وبها تتبين حال المؤمن أكثر من المرض ، وإن من طبيعة الإنسان أنه يأوي إلى ربه في حال الضر وينسى ربه في حال الرخاء كما قال تبارك وتعالى عن الجاحدين : ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)** ﴾ [لقمان : ٣٢] .

أما المؤمن فإنه متصل بالله تبارك وتعالى في حالتي السراء والضراء ، يقول النبي ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له** » [٤] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٩) وقال : حسن صحيح .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨) وقال : حسن صحيح .
(٣) رواه أحمد (٢٠٩/١) وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر رقم (١٥٠) وإسناده حسن .
(٤) رواه مسلم (٢٩٩٩) .

المبحث الثالث
الابتلاء بالأمن والخوف

الابتلاء بالأمن والخوف ابتلاء بالخير والشر ، فقد يمن الله على بعض عباده بأن يعطيهم الأمن ليختبر أمرهم أو يبتليهم بالخوف ليختبر صبرهم .

والأمن نعمة عظيمة من نِعم الله تبارك وتعالى حيث يشعر فيها الإنسان بلذة النعم ، أما الخائف فلا يشعر بقيمة النعم فى الدنيا ،ولا يكون شىء عنده أفضل من أن يأمن من ذلك الخوف .

رُوى أن بعض الحكماء قيل له : ما النعيم ؟ فقال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا عيش له ، قيل له : زدنا ! قال : الأمن ، فإنى رأيت الخائف لا عيش له ، قيل : زدنا ! قال : العافية ، فإنى رأيت المريض لا عيش له . قيل : زدنا ! قال : الشباب ، فإنى رأيت الهرم لا عيش له [١] . ولهذا فالأمن نعمة عظيمة يبتلي الله بها عباده لينظر كيفية شكرهم .

وإبراهيم عليه السلام لما شعر بقيمــة الأمن دعا ربه أن يجعل البلدة التى ترك فيها ابنه وزوجته – مكة – آمنة مطمئنة ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ [البقرة : ١٢٦] فاستجاب الله تعالى دعوته ، ولهذا امتن على قريش بهذه النعمة التى كفروها بعدم إيمانهم بالنبى ﷺ قال تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، إلا أن قريشاً لما كفرت تلك النعمة أبدلها الله بالخوف بدل الأمن .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤ / ١٥٢) .

وهذا حال موسى عليه السلام يخرج من المدينة خائفاً ، ثم ينعم الله عليه بالأمن، فاستمع لقصته ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَ[...] قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص : ١٨ – ٢٥] .

فحالة موسى عليه السلام عندما أصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، وعندما خرج من المدينة خائفاً يترقب تمثل حالة الإنسان الخائف الذى يريد الهروب من بطش الظالمين ، وعندها يتوجه إلى ربه أن ينجيه من القوم الظالمين ، يقول سيد قطب – رحمه الله – « ولفظ ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يصور هيئة القلق الذى يتلفت ويتوجس ويتوقع الشر فى كل لحظة ، وهى سمة الشخصية الانفعالية تبدو فى هذا الموقف كذلك ، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتى ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا

كـان خـائفـاً يتـرقـب في المدينـة ، فـأعظـم الخـوف مـا كـان فـي مـأمـن ومستقر » [(١)] .

وحينما قص قصته كان أول شيء منحه إيـاه أن هـدَّأ من روعه وقال له ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[القصص : ٢٥] . « فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب ، ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد ، ومن ثم أبرز السياقُ في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور : ﴿ لا تَخَفْ ﴾ فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة ، ويشعره بالأمان » [(٢)] .

والأمن في الآخـرة أشـد وأعظم حيث يصـيب الناس في المحشر خوف عظيم ، لكن عباد الله المؤمنين وأولياءه يؤمنهم الله من ذلك الخوف والفزع ، كما قال تعالى : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾[الأنبياء : ١٠٣] .

فالأمن نعمة عظيمة من نعـم الله تعالى على عبـده ، ولهـذا قال النبى ﷺ : « من أصـبح آمناً في سـربه ، مـعـافى في بدنه ، عنده قـوت يومـه فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها » [(٣)] .

وابتلاء الله تعالى بالأمن ابتلاء بالخير ، وذلك ليختبر عباده في شأن هذه النعمة ، هل يشكرونها ويقومون بأمرها بما يرضى الله تعالى أم أنهم ينسون تلك النعمة العظيمة ولا يحسون بها ولا بالذي منحهم إياها .

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٦٨٣) .
(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٦٨٧) .
(٣) رواه الترمذى (٢٣٤٧) وقال : حسن غريب .

لكن الأمن قد يكون بلاء على المرء ، إذ يدعوه ذلك إلى البطر والكبر والتعالي على الناس والتجبر في الأرض ، فيبتلي الله عباده المؤمنين بشيء من الخوف ليربطهم خوفهم بالله تبارك وتعالى وليشعروا بقوة الله وعظمته وعزته ، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

ففي الخوف فتنة يختبر الله بها عباده ، مَنْ الذي يصبر ومَنْ الذي لا يصبر ، ويخبر الله تعالى عباده المؤمنين بأنه سوف يبتليهم بذلك ليستعدوا لذلك الاختبار وليزيدهم ذلك صلة بالله تعالى ، وليقيسوا حالتهم في الأمن وفي الخوف ليعلموا مدى صلتهم بالله تبارك وتعالى ، ولهذا قال جل شأنه : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ولابد لنا من استعراض جوانب من الفوائد التي يورثها الخوف ، حيث جعل الله تعالى غريزة الخوف للحفاظ على الحياة ، فحينما يشعر المرء بالخوف يسارع بكل ما يمكنه ليلتجئ إلى ما يؤمنه ، وهذا الشعور من أعظم ما يربط الإنسان بربه تبارك وتعالى ، وذلك أن الإنسان الخائف يعلم أن الله تبارك وتعالى هو الملجأ الحقيقي ، لذلك إذا ألمّ بالإنسان خطر فإنه يسارع للالتجاء إلى الله تبارك وتعالى ، حتى الجاحدون تجدهم وقت الشدة يلجأون إلى الله جلّت قدرته ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس : ٢٣] ، وانظر إلى تعبير القرآن حين ألم بهم الخوف وعرفوا أن لا

ملجأ من الله إلا إليه ، فقد عبر عنهم بقوله : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لكنهم سرعان ما يرجعون إلى طبيعتهم – طبيعة البغي فى الأرض – التى كانوا عليها قبل الخوف والتى عادوا إليها حينما أمنوا .

ففى الخوف تتعرى فطرة الإنسان على حقيقتها ويلجأ فيها الإنسان إلى خالقه ومبدعه جلت قدرته ، فالمؤمن هو الذى يعتبر ، والجاحد يعود إلى طبيعته كأن شيئاً لم يكن .

وفى الخوف أعظم امتحان ، فحينما يشتد الخوف بالإنسان تظهر حقيقته التى كانت مخبوءة وراء « الدهاليز » وقد تجد الكثير من القضايا لا يُظهرها إلا الخوف .. ففى أثناء الخوف يظهر المنافقون على حقيقتهم وتتعرى نفوسهم القذرة وما كانوا يكيدون للمؤمنين .

استمع إلى قصة المنافقين وكيف تعرت نفوسهم فى غزوة الأحزاب حينما ألمَّ بهم الخوف ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) ﴾ [الأحزاب : ٩ – ١٥] .

ثم قال الله عن هولاء المنافقين ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾ [الأحزاب : ١٨ - ١٩] .

فالخوف يُظهر النفوس على حقيقتها ، كما بين القرآن الكريم حال المنافقين ، أما المؤمنون فإنهم يزدادون إيماناً وتسليماً ، قال تعالى عن المؤمنين - وقد رأوا اجتماع جيوش الكفر عليهم تريد استئصالهم - : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، أرأيت كيف يُظهر الخوف النفوس على حقيقتها ؟! .

وينبغي على المرء أن يعيش بين الخوف من ربه تبارك وتعالى وبين الرجاء في رحمته وغفرانه جل شأنه ، وذلك أن المرء كثير الذنوب والمعاصي ، ولا يعصم منها الإنسان إلا بقدر ما يعصمه الله تبارك وتعالى ويوفقه لذلك . لكن رحمة الله أوسع ومغفرته أشمل ، قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وذلك أن المرء لا يعرف عاقبته ، وذلك كما قال النبي ﷺ : « ... **فوالذي لا إله إلا غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبقُ عليه الكتابُ ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخُلُها** » [١] .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٣) .

فالخوف من الله تعالى لابد منه للمرء مهما عمل من الصالحات ، لذلك ورد الفضل العظيم لمن خاف الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** (٤٦) ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ **يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء : ٥٧] ، وقال تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور : ٣٧] .

ومن خاف الله تبارك وتعالى فإنه لا يخاف أحداً من البشر ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وهكذا ، ففي الخوف ابتلاء عظيم حيث تتبين النفوس وتظهر حقيقتها ويَظْهر المؤمنون ، بل يزدادون إيماناً وتسليماً إذا ألم بهم الخوف ، يزدادون إيماناً باللجوء إلى رحمة الله وعفوه ، ويزدادون إيماناً بقضاء الله وقدره عليهم .

بل إنه تعالى يبتليهم بشتى الابتلاءات ليعلم خوفهم منه بالغيب ، كما قال تعالى : ﴿ **لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ [المائدة : ٩٤] .

ومن هنا نعلم لماذا يبتلي الله المؤمنين بالخوف كما قال تعالى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** (١٥٥) ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، فذلك لتظهر نفوسهم ويعرف الإنسان نفسه أمام الله تعالى في خوفه وفي أمنه .



المبحث الرابع
الابتـلاء بالولـد

الأهل والأولاد والأقارب من نعم الحياة الدنيا ، التى قد لا تطيب الحياة إلا بهم ، فهم عون للرجل فى حياته ، يعينونه فى كبره وفى ضعفه ، ويعينونه على قضاء حوائجه وهم من ضرورات الحياة الدنيا ، قال الغزالي فى الإحياء : « وأما الأهل والولد فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، قال ﷺ فى الولد : « **إذا مات ابن آدم انقطع عـمله إلا من ثلاث** : ... **أو ولد صـالح يدعـو له** ... » [1] ، وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل كانوا له مثل الأعين والأيدي ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه ما لو انفرد به لطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة » [2] .

لذلك يمتن الله على عباده بقوله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٢] ، وقد جعل تبارك وتعالى الأولاد من زينة الحياة الدنيا وحببهم للنفوس فقال تعالى : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾[الكهف : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)** ﴾[آل عمران : ١٤] .

لذلك نجد أن هوداً عليه السلام يطلب من قومه أن يتقوا الله ربهم الذى أمدهم بالأنعام والبنين، وهو يحذرهم إن استمروا على كفرهم أن يسلبهم هذه النعمة :

---

(١) رواه مسلم(١٦٣١) وأبو داوود(٢٨٨٠) . (٢) إحياء علوم الدين (١٥٢/٤) .

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) ﴾ [الشعراء : ١٣٣] ، ونجد أن نوحاً عليه السلام قد وعد قومه إنْ هم استغفروا ربهم وتابوا إليه أن يمدهم بالأموال والبنين : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح : ١٢] .

لكن الأولاد فتنة عظيمة ، فقد يكونون سبباً فى الإلهاء عن ذكر الله تعالى أو فى معصية الله تعالى أو فى التقصير فى تبعات الدين وواجباته لذلك ورد التحذير الشديد من فتنة الأولاد ، حتى جعل القرآنُ منهم عدواً لآبائهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

فقد يكون الولد عاقاً غير مطيع لأبويه ، وبالتالى يكون فقده هو الأفضل ، وقد يكون الولد غير صالح فيكون فاسقاً أو كافراً – والعياذ بالله تعالى – فيكون فقده أفضل من وجوده ، وقد يولد الولد مشوهاً فى خلقته فتتحول الرغبة فيه إلى شقاء وعناء ، ولهذا فقد يكون للمرء فقد الولد أولى من وجوده ، والمرء لا يدري ما هو الأفضل ، لذلك يكون الخير فيما اختاره الله تبارك وتعالى .

ومنع الولد أو إعطاؤه بكثرة أو قلة كل ذلك بمشيئة الله تعالى وحسب حكمته جل شأنه ، يقول تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى : ٤٩ – ٥٠] .

وقد قص علينا القرآن قصة الأبوين المؤمنين ، وكيف هيأ العبد الصالح «الخضر» لقتل ذلك الغلام رحمة بالأبوين وخشية أن يرهقهما لأنهما كانا صالحين ، قال تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الكهف : ٧٤] ، ولكن الله جلت حكمته بيّن الحكمة من قتل الغلام [1] والتي تعود فائدتها على الأبوين : ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨١] .

فالولد نعمة عظيمة من نعم الله تبارك وتعالى وهو من زينة الحياة الدنيا ، وقد تكون النعمة العظيمة فى فقده لا فى وجوده ، والله جلت حكمته هو الذى يختار لعباده الأفضل لهم .

والله تبارك وتعالى يبتلى العباد بشأن الأولاد لينظر كيف يعملون ، فهل يقومون بتربيتهم كما شرع الله تعالى ؟ وهل يتحملون تبعاتهم ؟ .

ويبتلي الله عباده فى نوعية الأولاد فيهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور ، وطبيعة الإنسان الرغبة فى الذكور ، ولكن الله يبتليهم بذلك ، ويكون ما اختاره الله هو الخير ، فلما نذرت امرأة عمران أن تهب ولدها نذراً لله تعالى ليقوم بالعبادة والتفرغ للمعبد ، وتمنت أن يكون ولداً ، لكن الله جلت حكمته جعل المولود أنثى إلا أنه اصطفاها وطهرها ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ

---

(١) هذا وقد طُبِعَ هذا الغلام على الكفر فى علم الله ، فإذا عاش سيكون سببًا فى هلاك والديه ، وهذا معنى قول العلماء : « علم الله ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون » [المحقق: أبو الحسن بن نمير] .

عند اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[آل عمران: ٣٥ – ٣٧] .

فالأنثى قد تكون أفضل من الذكر ، لذلك ذم الله المشركين في الغضب من ولادة الإناث ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل : ٥٨ – ٥٩] .

ويبتلي الله العباد فيجعل من يشاء منهم عقيماً ، وذلك ليبتلي صبرهم في ذلك ، وليس معنى ذلك أن عدم الأولاد مطلقاً هو الخير ، بل وجودهم في الغالب هو الخير ، وذلك أن نفس الإنسان تتطلع دوماً إلى الذرية الصالحة التي تخلد ذكراه ، فهذا زكريا عليه السلام يسأل الله أن يهبه من يرثه ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾[مريم : ٣، ٦] ، فاستجاب الله تعالى دعوته ، فقال جل شأنه : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾[مريم: ٧] .

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، وقد منّ عليه واستجاب دعوته ورزقه الذرية الصالحة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

[الصافات : ٩٩ – ١٠٠] .

ففي الأولاد ابتلاء عظيم ، يمنح العباد لينظر كيف يشكرون ، ويمنع العباد لينظر كيف يصبرون .

المبحث الخامس
الابتلاء بالزوجة

والزوجة نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان ، وقد خلق الله تعالى الزوجة بصفات معينة تدل على قدرة الله وعظيم عنايته بالإنسان ، فجعل المرأة ذات طبيعة عاطفية لتحنو على أولادها ، ولتكون لزوجها سكناً وأمناً تستريح إليها نفسه من عناء الدنيا ومتاعب الحياة ، فكانت الأم تحنو على ولدها وكان يكفى الولد شيء من العطف والحنان ليشعر بالأمن والراحة ، ولكن لما يكبر المرء وتزداد همومه وتكثر مشاغله فكان لابد له من الاستقلال بامرأة تخفف عنه متاعب الحياة ، لذلك جعل الله الزوجة سكناً للرجل ، وجعل بين الزوجين المودة والرحمة ، ومن الزوجة ينجب الأولاد الذين هم زينة الحياة الدنيا ، ماذا سيكون حال الحياة إذا انعدمت هذه العاطفة وهذا الحنان وهذا السكن ؟! إنها تتحول إلى مادة بحتة وكأن الإنسان فيها شيء من الجماد ، إلا أن الله كرم الإنسان وميزه من بين المخلوقات .

فالزوجة من نعم الحياة التى لا تطيب الحياة إلا بها ، فيقول تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)** ﴾ [الروم : ٢١] ، « فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرة الله وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن إليها ، والسكون النفسى المذكور فى هذه الآية هو تعبير بليغ عن شعور الشوق والحب والرغبة الذى يشعر به كل منهما نحو الآخر ، والذى يزول به أعظم اضطراب فطري فى القلب والعقل ، ولا ترتاح

النفس وتطمئن فى سريرتها بدونه ، وكذلك من دلائل كرمه التى حدثتنا به الآية أن جعل بين الزوجين مودة حب ورحمة عطف ثابتتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن ألّفت بينهم الشهوات .

وجاء فى القرآن الكريم ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، فهذه الآية شبهت كلاً من الزوجين باللباس ، لأن كلاً منهما يستر الآخر ، فحاجة كل منهما لصاحبه كحاجته إلى الملبس ، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من عاديات الأذى وللتجمل والزينة ، فكل من الزوجين لصاحبه كذلك : يحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر له راحته وصحته » [١] .

فالزوجة من آيات الله الدالة على عنايته بالإنسان ، جعلها الله سكناً للرجل ، وجعل بينهما المودة والرحمة ، ولهذا نجد أن الله تعالى يمتن على المؤمنين بأن يُدخل الزوجات مع أزواجهن إلى الجنة : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف : ٧٠] ، والحبور : هو السرور العظيم ، أى تُسرون سروراً بالغاً ، وقال تعالى : ﴿ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [يس : ٥٦] ، وبذلك يزداد نعيم أهل الجنة فى جمع الرجال إلى نسائهم فيدخلون الجنة ويجتمعون فيها بسرور بالغ كبير .

إلا أن الزوجة فتنة عظيمة ، والإنسان لا يعرف حقيقته إلا بعد الاختبار ، هل يشكر أم يكفر ! ، وكم من الناس من كانت الزوجة سبباً لهم فى التقصير فى أمر هذا الدين وتبعاته ! فحينما يدعوه داعي الجهاد يتذكر الزوجة والبيت والأولاد ، وحينما يتهدد عيشه إذا صدع بكلمة الحق يتذكر الزوجة والبيت !

---

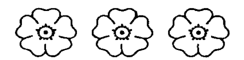
(١) روح الدين الإسلامى (ص ٣٦٢) .

وهكذا فى جميع أمور الحياة ، فالزوجة فتنة عظيمة ، ولهذا حذر القرآن الكريم من بعض الزوجات وجعل منهن عدواً للمرء ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٥] ، ويقول النبى ﷺ : « ما تركت بعدي فتنةً هى أضر على الرجال من النساء » [١] .

فالزوجة قد تكون نعمة على المرء وقد تكون بلاء عليه .

والله تبارك وتعالى يبتلي المرء بشأن الزوجة ، فيمنُّ عليه ويهيئ له زوجة ويبتليه بذلك ، فهل تكون زوجته عوناً له على دينه أم تكون سبباً فى تقصيره ؟ وقد يبتلي الله المرء بالزوجة العاصية فينظر صبره عليها ، وقد يبتليه بأن يهيىء له الزواج من أكثر من واحدة ، يقوم بأمرهن بالمعروف فيهيئ لهن أسباب العيش ، وهل يقوم بالعدل فيما بينهن ، وخاصة أن العدل بين الزوجات صعب وقد لا يملكه إلا القليل ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء : ١٢٩] .

ففى الزوجة فتنة عظيمة ، وقد يستطيع المرء تجاوز هذه الفتنة وقد لا يستطيع ، لذلك كان الابتلاء بها ابتلاء عظيماً ، والله هو الذى يختار للمرء ، فيختار لعبده المؤمن الخير .



---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٠) .

الخاتمة :

وعليه ، فإن الابتلاء إنما هو لاختبار الإنسان ليعلم حقيقة نفسه وحقيقة غيره ، والحياة كلها ابتلاء ، ابتلاء بالخير ، وابتلاء بالشر ، أما الخير والشر فباعتبار عودته على نفس المرء فيما يحبه أو يكرهه ، لكن قد يكون الحير للمؤمن فيما يكره ، وقد يكون الشر له فيما يحب ، إلا أن المؤمن الحقيقى هو الذى يحب ما اختاره الله له ، فإن ابتلاه بالمحبوب له شكر ، وإن ابتلاه بالمكروه له صبر وشكر أيضاً .

والله سبحانه يعطى المؤمن بالقدر الذى يعلم أنه يكون فيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، فإن كان الأفضل له فى العطاء أعطاه ، وإن كان الأفضل له فى المنع منعه وحماه منه ، كما يُمنَعُ المريض من الماء .

لذا كان على المرء أن يسلم لله سبحانه تمام التسليم فيما يختار له ويكون تام الرضا فيما أعطاه الله ، فإن منعه من شيء فلأن الله يحب عبده لئلا يفتنه ذلك الشيء ، فأفضل حالة للإنسان هى الصورة التى خلقه الله عليها ، وأفضل عطاء للإنسان هو ما أعطاه الله له .

ولا يعنى ذلك أن يستسلم المرء لما أصيب به من مكروه ، فمن أصيب بمرض أو فقر أو غيره ، فعليه أن يسعى للتخلص منه ويكون له بذلك أجر السعى للتخلص منه إضافة لأجر صبره عليه .

الدكتور / محمود أحمد الأطرش
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – إحياء علوم الدين ، محمد الغزالي « أبو حامد » ، الطبعة الأولى ، دار الشعب ، القاهرة ، بلا تاريخ .

٣ – الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٥م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٤ – تفسير ابن كثير « تفسير القرآن العظيم » ، إسماعيل بن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٥ – تفسير أبى السعود « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » لأبى السعود محمد محمد العمادي ، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

٦ – تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف « أبو حيان الأندلسى » تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ –١٩٩٣م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٧ – تفسير النسفي « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » عبد الله بن أحمد النسفي ، تحقيق زكريا عميرات ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٨ – تقريب التهذيب ، ابن حجر العسقلانى ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م ، مؤسسة الرسالة بيروت .

٩ – روح الدين الإسلامي ، عفيف طبارة ، الطبعة السابعة والعشرون ،

١٩٨٨م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

١٠ – سنن ابن ماجه ، محمد بن زيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ ، دار الحديث ، القاهرة .

١١ – سنن أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، ترقيم كمال الحوت . الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ– ١٩٨٨م ، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .

١٢ – سنن الترمذى « الجامع الصحيح » محمد بن عيسى بن سورة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

١٣ – السُّنن الكبرى ، أحمد بن الحسين البيهقى ، دار الفكر ، بيروت ، بلا تاريخ .

١٤ – صحيح البخارى ، محمد بن إسماعيل البخارى ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، دار الفكر ، بيروت .

١٥ – صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م ، دار الخير ، دمشق وبيروت .

١٦ – فضيلة الشكر لله على نعمته ، محمد جعفر السامري المعروف بالخرائطى ، تحقيق مطيع الحافظ وعبد الكريم اليافى ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، دار الفكر ، دمشق .

١٧ – فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الحادية عشر ، ١٩٨٥م ، دار الشروق ، القاهرة .

١٨ – كتاب الشكر لله عز وجلّ ، عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا ، تحقيق ياسين السواس وعبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ –

١٩٨٥م ، دار ابن كثير ، دمشق .

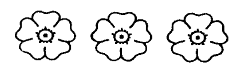
١٩ – المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله الحاكم النيسابورى ، دار المعرفة بيروت ، بلا تاريخ .

٢٠ – المسند ، أحمد بن حنبل ، الطبعة الثانية ١٩٩٣م ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢١ – المفردات فى غريب القرآن ، الراغب الأصفهانى ، دار المعرفة ، بيروت بلا تاريخ .

٢٢ – معجم المفسرين ، عادل نويهض ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨م ، مؤسسة نويهض ، لبنان .

٢٣ – معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .



الفهرس

	رقم الصفحة
• المقدمة .	٥
❑ الفصل الأول : حقيقة الابتلاء وبيان الحكمة منه .	٦
• المبحث الأول : تعريف الابتلاء .	٦
• المبحث الثاني : الابتلاء بالشر والخير .	٨
• المبحث الثالث : حكمة الابتلاء .	١١
❑ الفصل الثاني : ألوان الابتلاء .	١٨
• المبحث الأول : الابتلاء بالغنى والفقر .	١٨
• المبحث الثاني : الابتلاء بالصحة والمرض .	٢٦
• المبحث الثالث : الابتلاء بالأمن والخوف .	٣٠
• المبحث الرابع : الابتلاء بالولد .	٣٧
• المبحث الخامس : الابتلاء بالزوجة .	٤١
• الخاتمة .	٤٤
• المصادر والمراجع .	٤٥
• الفهرس .	٤٨

